

تفسير ابن كثير

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ^ج
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ

(فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم) ، وقرأ آخرون : " بعد بين أسفارنا " ،
وذلك أنهم بطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد -
وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف
، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها
وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى وما يشتهون من
مآكل ومشارب وملابس مرتفعة؛ ولهذا قال لهم : (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو
خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله
([البقرة : 61] ، وقال تعالى : (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) [القصص : 58
[، وقال تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل
مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) [النحل :

[112] . وقال في حق هؤلاء : (وظلموا أنفسهم) أي : بكفرهم ، (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) أي : جعلناهم حديثا للناس ، وسمرا يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيئ تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : " تفرقوا أيدي سبأ " " وأيادي سبأ " و " تفرقوا شذر مذر " . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان [عن يمين وشمال]) إلى قوله : (فأرسلنا عليهم سيل العرم) وكانت فيهم كهنة ، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء ، فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خبر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلمهم . فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيه - وهو أعزهم أخوالا - : إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتك فانتهرني ، فإذا تناولتك فالطمني . فقال : يا أبت ، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد ، قال : يا بني ، قد حدث أمر لا بد منه . فلم يزل

به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بني ، افعل كذا وكذا .

فأبى ، فانتهره أبوه ، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه ، فوثب على أبيه فطمه ، فقال : ابني يلطمني ؟ علي بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبحه . قالوا :

تذبح ابنك . الطمه أو اصنع ما بدا لك . قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبحه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي فيه ، اشتروا مني دوري ، اشتروا مني أرضي ، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن في يده وأحرزه ، قال : أي قوم ، إن العذاب قد أظلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير - وكلمة ، قال إبراهيم : لم أحفظها - فليلحق ببصرى ، ومن أراد الراسخات في الوحل ، المطاعم في المحل ، المقيمات في الضحل ، فليلحق بيشرب ذات نخل . فأطاعه قومه فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر

فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغي به بدلا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ،
لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل
عمان إلى عمان ، وتوجهت غسان إلى بصرى . هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو
عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم . وقد ذكر محمد بن إسحاق بن
يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد
اليمن ، بسبب استشهاده بإرسال العرم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن
- فيما حدثني أبو زيد الأنصاري - : أنه رأى جرذا يحفر في سد مأرب ، الذي كان
يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ،
فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم
إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغر ولدي .
وعرض أمواله ، فقال أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غضبة عمرو . فاشتروا منه
أمواله ، وانتقل هو في ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر .
فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فसारوا حتى نزلوا بلاد " عك " مجتازين يرتادون البلدان ،

فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سجالا . ففي ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :وعك
بن عدنان الذين تلقبوا بغسان ، حتى طردوا كل مطرد وهذا البيت من قصيدة له .قال : ثم
ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلاد ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس
والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان عمان ،
ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات .وقد
ذكر السدي قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : " فأمر
ابن أخيه " ، مكان " ابنه " ، إلى قوله : " فباع ماله وارتحل بأهله ، فتفرقوا " . رواه ابن
أبي حاتم .وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] ، عن ابن إسحاق قال :
يزعمون أن عمرو بن عامر - وهو عم القوم - كان كاهنا ، فرأى في كهنته أن قومه
سيمزقون ويباعد بين أسفارهم . فقال لهم : إني قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان
منكم ذا هم بعيد وجمل شديد ، ومزاد جديد - فليلق بأكاس أو كرود . قال : فكانت
وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هم مدن ، وأمر دعن ، فليلق بأرض شن . فكانت
عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشا أنيا ، وحرما

آمنا ، فليلق بالأرزين . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ،
المطعمات في المحل ، فليلق يثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان
الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمرا وخميرا ، وذهبا وحريرا ، وملكا وتأميرا ،
فليلق بكوثي وبصرى ، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام . ومن كان منهم بالعراق . قال
ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو
بن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت في كهانتها ذلك ، فالله أعلم أي ذلك كان . وقال
سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبي : أما غسان فليحقوا بالشام ، وأما الأنصار فليحقوا يثرب ،
وأما خزاعة فليحقوا بتهامة ، وأما الأزد فليحقوا بعمان ، فمزقهم الله كل ممزق . رواه ابن
أبي حاتم وابن جرير . ثم قال محمد بن إسحاق : حدثني أبو عبيدة قال : قال الأعشى -
أعشى بني قيس بن ثعلبة - واسمه : ميمون بن قيس : وفي ذاك للمؤتسي أسوة ومأرب
عفى عليها العرمرخام بنته لهم حمير إذا جاء مواره لم يرمفأروى الزروع وأعنا بها على سعة
ماؤهم إذ قسمفصاروا أيادي ما يقدر ن منه على شرب طفل فطموقوله تعالى : (إن في
ذلك لآيات لكل صبار شكور) أي : إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب ،

وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعني ، قالا أخبرنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن العيزار بن حريث عن عمر بن سعد ، عن أبيه - هو سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عجت من قضاء الله تعالى للمؤمن ، إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن في كل شيء ، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته " . وقد رواه النسائي في " اليوم واليلة " ، من حديث أبي إسحاق السبيعي ، به - وهو حديث عزيز - من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة : " عجا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن " . قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن قتادة (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) قال : كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذي إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر .